Journal of Al-Farabi for Humanity Sciences Volume (9) Issue (4) April (2026)

ISSN: 2957-3874 (Print)
Journal of Al-Farabi for Humanity Sciences (JFHS)
https://iasj.rdd.edu.iq/journals/journal/view/95
مجلة الفارابي للعلوم الإنسانية تصدرها جامعة الفارابي

دبلوماسية فرنسا تجاه تطورات مؤتمر ڤـينا (١٨١٤ - ١٨١٥)

د. انتظار هادي جاسم الدليميّ
كلية التربية الأساسية / جامعة واسط

French diplomacy towards the developments of the Congress of Vienna (1814-1815)

e.al-dilymy@uowaist.edu.iq
Intidhar Hadi Jassim Al-Dulaimi
Teaching at the College of Basic Education / Wasit University

المستخلص

يعد مؤتمر ڤينا من أهم المؤتمرات الدولية التي عقدت في القرن التاسع عشر، ويعود ذلك للانعكاسات الفكرية والايدولوجية والاقتصادية والعسكرية التي تمخضت عن أحداث الثورة الفرنسية والتوسع الامبراطوري الفرنسي في القارة الأوربية. فقد اقتضت الظروف السياسية بعد هزيمة نابليون بونابرت ونفيه إلى جزيرة (إلبا Elba)، حلفاء الدول أوربا الكبرى على الاتفاق على تسوية امور أوربا، وفي مقدمتها النظر فيما ينبغي ان يكون عليه مستقبل فرنسا. وللتشاور في شؤون أوربا العامة وتسوية المشكلات التي نجمت عن تلك الحروب الطويلة، وبالتالي أعادة التوازن الدولي في أوربا. غير ان تلك المهمة كانت شائكة ومعقدة جراء التداعيات السياسية التي افرزتها المرحلة النابليونية، الأمر الذي دفع دول الكبرى إلى تبني سياسة التفاهم المشترك عبر الوسائل الدبلوماسية ومنها سياسة المؤتمرات والتي بدأت بمؤتمر ڤينا. وقد لعبت الدبلوماسية الفرنسية متمثلة بشخص تاليران دورا كبيراً في المؤتمر، إذ نجحت على الرغم من هزيمتها في تحطيم الحاجز المفروض عليها، مستغلة الخلافات بين الدول الكبرى، ولاسيما قضية "**بولندا وسكسونيا**" لتتحالف مع بريطانيا والنمسا، ولاسيما وأن تاليران أول من نادى وتبنى مبدأ الحقوق الشرعية. فضلاً عن ذلك ، أسهمت الدبلوماسية الفرنسية في الحد من العقوبات المفروضة عليها والحفاظ على حدودها الطبيعية ضمن مبدأ التوازن الدولي والحيلولة دون تقسيم البلاد.

الكلمات المفتاحية: فرنسا، مؤتمر، تاليران، علاقات دولية، دبلوماسية

- **Abstract** :
The Congress of Vienna is considered one of the most important international conferences held in the 19th century, due to the intellectual, ideological, economic, and military repercussions of the French Revolution and the French imperial expansion in Europe. Following Napoleon Bonaparte's defeat and exile to the island of Elba, the political circumstances compelled the allies of the major European powers to agree on a settlement for European affairs, primarily addressing the future of France. The aim was to consult on general European matters and resolve the problems resulting from those long wars, thereby restoring international balance in Europe. However, this task was thorny and complex due to the political ramifications of the Napoleonic era, which led the major powers to adopt a policy of mutual understanding through diplomatic means, including conferences, beginning with the Congress of Vienna. French diplomacy, spearheaded by Talleyrand, played a significant role at the conference. Despite its defeat, France succeeded in overcoming the imposed obstacles, exploiting the divisions among the major powers, particularly regarding Poland and Saxony, to forge an alliance with Britain and Austria. Talleyrand was the first to advocate for and champion the principle of legitimate rights. Furthermore, French diplomacy contributed to mitigating the sanctions imposed upon France, preserving its natural borders within the framework of international equilibrium, and preventing the country's partition.

- **Key words:** France, conference, Talleyrand, international relations, diplomacy.

المقدمة:

يعد مؤتمر ڤينا اكثر المؤتمرات أهمية بعد مؤتمر وستفاليا عام ١٦٤٨، وبما أن مؤتمر وستفاليا نظم شؤون أوربا بعد حرب دولية طاحنة (حرب الثلاثين سنة)، فإن مؤتمر ڤينا نظم شؤون أوربا بعد الحروب التي قامت في عهد الثورة الفرنسية ونابليون. طرحت أمام مؤتمر فيينا عام ١٨١٤ مجموعة من الإشكاليات المعقّدة في ظل وجود نابليون في منفاه بجزيرة إلبا. فقد دارت التساؤلات حول ما إذا كان ينبغي تحميل نابليون وحده مسؤولية ما جرى، أم أن فرنسا أيضًا يجب أن تُعاقَب. كما ثار النقاش بشأن إمكانية إعادة السلالات الحاكمة القديمة إلى مواقعها، أو الاعتراف بالمطالب والحقوق الشعبية، إضافة إلى البحث عن سبل حماية الدول الأكثر تعرضًا للغزو الفرنسي من أي تهديد مستقبلي.وفيما يتعلق بالسؤال الأول، اتّسم موقف الحلفاء بالمرونة تجاه فرنسا، فلم تُعامَل بقسوة. غير أن الأمور تغيّرت عقب معركة واترلو، إذ مُنيت فرنسا ببعض الإجراءات المُهينة، نظرًا لأن قطاعات واسعة من الشعب الفرنسي بدت وكأنها ترحّب بعودة نابليون من إلبا. أما بالنسبة لبقية القضايا، فكانت الضرورة الملحّة هي تعزيز بنية أوربا الدفاعية لمواجهة أي احتمال لاندلاع حرب جديدة، حيث سعى الملوك والقادة إلى الحصول على تعويضاتٍ تتناسب مع الأضرار والخسائر التي تكبدوها خلال المرحلة النابليونية.

المبحث الأول: وضع فرنسا السياسي قبل المؤتمر

شهدت فرنسا بعد عام ١٧٨٩ تغيرات سياسية عدة ، على الصعيد الداخلي والخارجي ، فمنذ استلام نابليون السلطة في فرنسا كقنصل بعد نجاح انقلاب برومير عام ١٧٩٩، ومن ثم امبراطوراً عام ١٨٠٤، عده الشعب الفرنسي رجل الساعة الذي تحتاجه البلاد. وتمكن نابليون من اخراج فرنسا من حدودها الطبيعية، وقهر جيوش جميع الدول الأوربية، ولم يجد ما يمنعه سوى بريطانيا التي تتمتع بطبيعة جغرافية محصنة كونها جزيرة تحيط بها البحار والمحيطات، فضلاً عن امتلاكها اقوى اسطول بحري في العالم آنذاك.أدت انتصارات نابليون وطموحاته الامبراطورية التي لا تتوقف إن تحالفت الدول الأوربية ضده عام ١٨١٤، ذلك التحالف الذي تمكنت قوات التحالف من خلاله الاستيلاء على باريس في الحادي والثلاثين من إذار ١٨١٤، وحينما أيقن نابليون عدم جدوى المقاومة آنذاك تنازل عن الحكم في فرنسا ونفي إلى جزيرة إلبا في البحر المتوسط مع احتفاظه بلقب إمبراطور (حامد، ٢٠١٥، ص٢٨١)اقتضت الظروف السياسية لإعادة ترتيب الخارطة السياسية الفرنسية والأوربية، تشكيل حكومة فرنسية جديدة برئاسة تاليران (بدأ تاليران حياته كاهنًا ثم أسقفًا لاوتان، وقد برز اسمه في عام ١٧٨٩، حينما اقترح أن تُصادر الدولة أملاك الكنيسة، في خطوة عكست قدرته على قراءة التحولات السياسية وتوظيفها. ومع تطور الأحداث، أصبح وزيرًا للخارجية، وحينما تولّى نابليون بونابرت السلطة احتفظ به في منصبه، إذ أدرك مواهبه الدبلوماسية. وخلال السنوات الأولى من حكم نابليون، وقف تاليران دائماً إلى جانبه، يتولى معظم المفاوضات. وعد تاليران أحد أهم الوجوه الدبلوماسية التي أسهمت في رسم السياسة الخارجية لفرنسا. وقد عرف تاليران بذكائه السياسي ومرونته في تغيير مواقفه وفق ما تمليه مصلحة بلاده، وهو ما تجلّى بوضوح مع اقتراب حروب الثورة الفرنسية لعام ١٧٨٩ من نهايتها وتبدّل موازين القوى في أوربا، فبعد صلح تيلسيت مع روسيا ابتعد تاليران تدريجيًا عن نابليون، مستغلاً الظروف السياسية القائمة آنذاك ليعيد تغيير مسار سياسته بما يخدم رؤيته ويتيح له التأثير في مجريات الأمور على النحو الذي خطّط له بعناية (Mccaabe,, 1906))، واتفاق حلفاء دول أوربا الكبرى على تسوية امور أوربا، وفي مقدمتها النظر فيما ينبغي عليه مستقبل فرنسا. فقد قرروا ذلك تنفيذ ما نصت عليه معاهدة باريس الاولى في الثلاثين من أيار ١٨١٤(العكيلي، ٢٠٠٥، ص ٧٨)، التي وقعها كل من تاليران عن فرنسا و ممثلو النمسا وروسيا وبريطانيا وبروسيا، إذ تضمنت المعاهدة الرجوع بفرنسا إلى حدودها السابقة التي كانت لها في تشرين الثاني ١٧٩٢، وسمح لها بالاحتفاظ ببعض المناطق في الالزاس وجهات نهر الراين، كما استعادت فرنسا معظم مستعمراتها، بشرط ان تتعهد فرنسا بأن تكتفي بذلك ، وألا تطمع في السيطرة او الاشراف على اي بقاع أخرى فيما وراء حدودها الجديدة. كما لم تفرض عليها غرامة حربية وأعيد النظام الملكي وأصبح لويس الثامن عشر أخ الملك لويس السادس عشر ملكاً على فرنسا(راشد، ١٩٨٦، ص ٢٢٥– ٢٢٦). وتعهدت المعاهدة بالاعتراف بكل الترتيبات التي يتفق عليها الحلفاء بشأن الأقاليم التي تخلت عنها فرنسا والنظام الذي سوف ينجم عن تلك الترتيبات ليكفل التوازن الحقيقي والدائم في أوربا، وبذلك، كان الهدف من شروط الصلح الذي تم في باريس ليس أعادة فرنسا للملكية فحسب، بل كان إضعاف فرنسا ذاتها(عمر، ٢٠٠٠، ص٣٠). الا أن الحلفاء لم يكونوا متطرفين في حكمهم بل تميزوا باعتدال سياسي نحو فرنسا، فلم يفرضوا عليها غرامة او تعويض حربي او يجردوها من السلاح، ولم يصر أعداؤها على احتلال أرضها بل أنهم تركوا لها ما نهب نابليون من التحف والنفائس والقطع الفنية النادرة من متاحف البلاد التي غزاها، كما اتسعت رقعة أرضي لويس الثامن عشر عما كانت عليه قبل الثورة(راشد، ١٩٨٦، ص ٢٢٥). يبدو أن الحلفاء لم يكونوا مدفوعين بدواعٍ عاطفية، وإنما سعوا إلى تهدئة الأوضاع وإرساء السلام، مع الحرص على طمأنة الفرنسيين وإزالة ما يعتري نفوسهم من قلق.استبشر تاليران بنتيجة المعاهدة التي تركت لفرنسا بعض القلاع

والتحصينات على حدودها مع ألمانيا وبلجيكا، وقد كتب إلى عشيقته مدام كورلاند " **لقد وقعت اليوم معاهدة السلام .. وهي معاهدة جيدة، وعلى أفضل درجة من المساواة التامة، وأنا فرح بهذا السلام من الند إلى الند الذي تمت الموافقة عليه من قبل كل الأطراف نصاً ومحتوى**". بينما رأى الفرنسيون بالمعاهدة ، تكريسا لمهارة تاليران الدبلوماسية وبراعته السياسية، ولاسيما وأن القوات المحتلة لعاصمتهم قامت بمغادرتها نهائياً بعد ثلاثة أيام(خضر ، ٢٠١٦، ص٣١١).وبعقد معاهدة باريس الأولى انتهت الحروب التي بدأت في أوربا في عهد الثورة الفرنسية، ثم استمرت في عهد الامبراطورية النابليونية وأصبح من الضروري عقد مؤتمر للتباحث في شؤون أوربا العامة وتسوية المشكلات التي نجمت عن تلك الحروب الطويلة فوقع الاختيار على ڤينا(عمر، ٢٠٠٠، ص ٣١) ، لتكون مقراً للمؤتمر إرضاء للنمسا بعد الذي أصابها من أضرار وما نزل بها من محن على يد نابليون. وإذا كانت دول أوربا التي أرهقها نابليون بحروبه قد دعيت كلها إلى المشاركة في مؤتمر ڤينا ، فإن دعوتها كانت في الواقع شكلية لأن الذين قاموا فعلا بأعمال المؤتمر كانوا ممثلي الدول الأربع الكبرى (روسيا وبريطانيا والنمسا وبروسيا)(هريدي ، ٢٠٠٧، ص ١٢٣- ١٢٤).

المبحث الثاني: الاستراتيجية الفرنسية في مؤتمر ڤينا

كان المؤتمر الذي عقدته الدول الأوربية في مدينة ڤينا عام ١٨١٤ ، نتيجة غير مباشرة للثورة الفرنسية التي اندلعت في أواخر القرن الثامن عشر، وللحروب المروعة التي أدت اليها الثورة. وتنفيذاً لشروط معاهدة باريس الاولى، قرر الحلفاء عقد المؤتمر لتحقيق عدة اهداف أهمها: توزيع البلاد التي لم يبت في امرها في تلك المعاهدة (اراضي الراين الألمانية وبعض الأراضي الايطالية)، وإعادة تنظيم الولايات التي أنشأها نابليون (ولايات اتحاد الراين ودوقية فرسوفيا) ، وتأمين أوربا من الخطر الفرنسي(قاسم و حسني ، ١٩٢٩، ص ٧٣- ٧٤). لذا فاقت الوفود التي قدمت لحضور المؤتمر كل التوقعات، وتجاوزت الحد المتعارف عليه في مثل هكذا نوع من الاجتماعات. إلا أن الأطراف المهمة والفاعلة كانت محصورة بالدول المنتصرة الكبرى (بريطانيا ، النمسا ، روسيا وبروسيا)، إذ حضر عن تلك الدول كل من وزير النمسا للشؤون الخارجية مترنيخ الذي سعى لإعادة كل الأراضي التي فقدتها النمسا على أيدي الفرنسيين في ايطاليا وألمانيا، والحد من سلطة بروسيا في الشؤون الألمانية وأن لا تطلق يد روسيا في تقرير مصير بولندا، وحرص على إقامة السلم وإعادة الهدوء إلى القارة الأوربية مع المحافظة على النظم الملكية القديمة والعمل على منع أي دولة من الدول الكبرى من ان تفرض سيطرتها على أوربا(Morris , 1916 , p11). والاسكندر الأكبر قيصر روسيا الذي شعر بان له الحق في إقامة دور أساسي في سياسة القارة الأوربية، لذا طالب بتأليف حلف عام مع الدول الأوربية الكبرى بزعامته، وذلك لتأمين سلام القارة ولحماية نظم الحكم التقليدية، فضلاً عن مطالبه التوسعية في فلندا وبيساريا في بولنيا، الأراضي التي استولى عليها عام ١٨٠٠ بالاتفاق مع نابليون وأطماعه في المضايق العثمانية (قاسم و حسني ، ١٩٢٩، ص ٧٣- ٧٤)، ووزير خارجية بريطانيا كاسلري الذي سعى لتحقيق أهداف بلاده الرئيسية في المحافظة على الاستقرار والسلام والابقاء على التوازن الدولي لضمان مصالحها التجارية في العالم، كما لم تكن أي مطامع اقليمية داخل القارة الأوربية، إذ أن مصالحها كانت خارج قارة أوربا. غير ان رغبتها امتدت للحصول على عدد من الجزر المهمة في البحار والمحيطات منها جزيرة مالطا والجزر المقابلة لليونان ومستعمر الكاب، وتشديد السيطرة على بعض الممرات المائية، ووضع حدا للمطامع الروسية في شرق أوربا وفي الدولة العثمانية، وبذلك تصبح السيادة البريطانية على البحار أرسخ مما كانت عليه (Hinsly, 1977, p.30-31)، وفريدريك وليم الثالث امبراطور بروسيا الذي سعى للتوسع في الولايات الألمانية، ولاسيما بضم ولاية سكسونيا، فضلاً عن الاستيلاء الالزاس واللورين الفرنسيتين، كما سعت لتوحيد الولايات الألمانية في دولة واحدة. وحضر عن فرنسا المهزومة وزير خارجيتها تاليران بعد تسليم السلطة للعاهل الجديد، فضلاً عن عشرات الأمراء والدبلوماسيين الذين يمثلون مختلف الإمارات والدول، إذ تجاوز عددهم مائة وأربعين شخصية مهمة(خضر ، ٢٠١٦، ص ٣١٢؛ راشد، ١٩٨٦، ص ٢٢٧). كما حضر المؤتمر عدد من أولئك الذين فقدوا إماراتهم بعد إن دمجت أراضيهم في دول أخرى، أملاً في أن يتمكنوا من إقناع المجتمعين بإعادة ممتلكاتهم واسترجاع حقوقهم السابقة أو الحصول على تعويضات مناسبة(نوار و نعنعي، ٢٠١٤، ص ١٤٤).

كانت جميع الشخصيات السياسية التي شاركت في المؤتمر تحمل الكراهية الواضحة للمتغيرات التي أحدثتها الثورة الفرنسية، ولاسيما في مجالات حقوق الإنسان وإثارة الشعور القومي في انحاء أوربا، فسعت تلك الشخصيات إلى تغليب مصلحة الحكام والملوك على حساب مصالح الشعوب المقهورة، والوقوف ضد التطلعات القومية المشروعة، كأنهم يمثلون الاستبداد وفي مقدمتهم ثعلب التيار المحافظ وشيخ الرجعية دي مترنيخ (المهداوي، ٢٠١٤، ص ٦٤). نشأت أسس فلسفية استندت اليها مبادئ مؤتمر ڤينا نتيجة للظروف والأحداث التي عاشتها أوربا بعد قيام الثورة الفرنسية وظهور نابليون، إذ شهدت أوربا تحولات عميقة في المفاهيم والقيم السياسية والاجتماعية. نتيجة لانتشار أفكار الحرية والمساواة، وضعف سلطة الكنيسة، وإلغاء النظام الإقطاعي وامتيازات النبلاء والاباطرة، كما أدت الحروب المتواصلة التي استمرت ما يقارب خمسة وعشرون عام إلى تغيير جذري في الخريطة السياسية لقارة أوربا. وعلى اثر ذلك، أدركت الدول الأوربية ضرورة ايجاد أسس سياسية جديدة تحول دون تكرار فكر

الثورة الفرنسية ونتائجه والتوسع النابليوني (الادهمي، ١٩٨٥، ص ٦٠). وفي الثالث والعشرين من أيلول ١٨١٤، أنهى ممثلو الدول الكبرى اجتماعاتهم متفقين على خطة العمل في المؤتمر والمبادئ التي يجري العمل وفقًا لها:

أولا: مبدأ إرجاع الحقوق الشرعية لأصحابها: أي إعادة الأسر الملكية القديمة إلى الحكم في الدول التي أطاح نابليون بأصحابها عن عروشهم وضمها إلى فرنسا. وإن التخلي عن مبدأ القوة كقاعدة للملكية والسيادة، وأن السيادة على بلد ما لا تكتسب بالقوة وان الحق لا يخلق بالفتح. وإذا كان هناك إتجاه للتملك فيجب أن يتنازل المالك الشرعي عن ذلك، فالتنازل هو الذي يمنح الشرعية ، لا الغزو أو الإكراه. وقد تبنى هذه الفكرة ووسعها وزير خارجية فرنسا تاليران. وقد تبين ذلك من خلال قوله " إن حاجة أوربا الأولى هي أن تبعد الرأي القائل إنه يمكن اكتساب حقوق بمجرد الفتح، وان تحي مبدأ الشرعية الذي ينبثق عنه النظام والاستقرار"(حاطوم ، ١٩٧٩، ج١، ص ٢٧٩). وبينما كانت القوى المنتصرة تتصرف على غرار نابليون، فقد سعت إلى بسط سيطرتها على الأراضي التي احتلتها جيوشها بما ينسجم مع مصالحها الخاصة. وقد عدَ اولئك أن موقف تاليران، المبني على مبدأ الشرعية الملكية، كان أقرب إلى المثالية منه إلى الواقعية السياسية، فقد كشفت أحداث مؤتمر ڤينا عن نية واضحة لدى الحلفاء لاحتكار رسم مستقبل أوربا واستبعاد فرنسا من عملية صنع القرار، كونها دولة لم تتخلص تمامًا من أفكار الثورة. وتمثلت أولى نجاحات تاليران الجوهرية في كسر العزل الدبلوماسي، عبر تأكيده القوي على مبادئ الشرعية الملكية وحق فرنسا في حماية وحدتها حتى إن القيصر الروسي الاسكندر علق بدهشة قائلاً: " تاليران يتحدث كما لو كان وزيرًا من عهد لويس الرابع عشر"، ولم يكن هدفه شكلياً، بل حماية وحدة فرنسا ووجودها، خاصة أن لويس الثامن عشر استعاد أراضيه بناءً على الحق الوراثي (Broglie , 1891, p 14). كما عد مترنيخ وزير خارجية النمسا أقوى شخصية تمكنت من السيطرة على مناقشات المؤتمر، ومن أشد الأعضاء تمسكاً بعودة الامور إلى سابق عهدها، فجعل من مبدأ الحقوق الشرعية في مؤتمر ڤينا أساساً لكل تسوية، ومنح بعض الدول تعويضات عادلة، واعادة العداء المستحكم ضد فرنسا والعمل على اضعافها، حتى يمكن هزيمتها مستقبلاً في حالة عودتها لعهد الثورة وحرب التوسع (البطريق، ١٩٧٤، ص ٢١). وقد أفضى هذا المبدأ إلى توجيه نقد للمؤتمر، فمسألة تطبيقه معناها تجاهل ما جاءت به الثورة الفرنسية من آراء وأفكار وتبدلات، محاولة للعودة بالتاريخ إلى الوراء. والواقع أن أهم المشاكل التي واجهت أوربا عام ١٨١٥ ترجع إلى تطبيق هذا المبدأ، إذ تجاهل ساسة أوربا المصالح القومية للشعوب (Stearns, 1947, p. 25).

ثانيا: مبدأ توازن القوى: ويقوم على أساس إبعاد شبح الحرب التي استعر بنارها كل جزء من أجزاء القارة الأوربية، وان تطلب ذلك التجاوز على المبادئ الإنسانية كحرية الشعوب وحقوقها القومية (Carr, 1955, p.113). ووفقاً لهذا المبدأ أعاد الحلفاء فرنسا إلى ما كانت عليه قبل حروبها الاخيرة لإعادة التوازن الدولي في أوربا، وقد حرص المؤتمر على عدم منح أي دولة من الدول العظمى أي امتيازات تجعلها قوية وتمكنها من فرض سيطرتها على أوربا وتخل بتوازن القوى في القارة(عمر، ٢٠٠٠، ص ٣٤). وبذلك كان مؤتمر ڤينا حسب هذا المبدأ قد تجاوز مبدأ توازن القوى الحقيقي، وحوله من وسيلة لحفظ استقلال الدول إلى أداة لإعادة توزيع النفوذ بين الدول الكبرى. فبدل أن يكون التوازن نظاماً دفاعياً هدفه حماية الكيانات السياسية ومنع هيمنة دولة على أخرى، أصبح ذريعة لتقويض استقلال الدول الصغيرة وإلغائها لصالح تحالفات الدول العظمى. كما أن تدمير الدول المستقلة باسم توازن القوى مثل انقلاباً على جوهر النظام الاوروبي التقليدي، الذي قام على حماية الدول الصغيرة عبر تنافس القوى الكبرى لا على القضاء عليها. ووفق هذا المنطق الجديد الذي اقر في ڤينا ، لم يعد لبقاء الدول الصغيرة مكان، إذ اصبح مصيرها التضحية من أجل ترسيخ هيمنة الدول الكبرى، في حين لم يكفل الاستقرار إلا للدول القادرة على الدفاع عن نفسها(Joll, 1960, p 65).

ثالثاً: مبدأ التعويضات الاقليمية: أي تعويض الدول الكبرى عما لحق بها من خسائر خلال حروب الثورة الفرنسية ونابليون بأرض أخرى. بحيث تكون النتيجة النهائية حصول كل دولة عظمى على الأراضي التي كانت في حوزتها عام ١٨٠٥، أو ما يعادلها. وكان ذلك على حساب الدول الصغرى وحقوقها القومية(رمضان، ١٩٩٦، ص ٢٠). وبذلك قصدت الدول الكبرى من إقرارها لهذا المبدأ تأمين مصالحها الخاصة بحصولها على التعويضات المناسبة حتى وان تطلب ذلك التجاوز على حقوق الشعوب الصغيرة، بذريعة تعويض الخسائر التي منيت بها جراء حروب الثورة الفرنسية ونابليون، دون الأخذ بعين الاعتبار التضحيات التي قدمتها هذه الشعوب خلال المدة ١٧٨٩ – ١٨١٥ (Rene, 1947, p. 106).

دور فرنسا في أعمال مؤتمر ڤينا: كانت أعمال المؤتمر في الغالب عبارة عن مباحثات سرية خلف الكواليس بين الدول الكبرى، أما الدول الصغرى فقد كانت مجرد متفرج . فقد بدأت أعمال المؤتمر في البداية باجتماع الدول الأربع الكبرى المنتصرة بريطانيا ، النمسا ، روسيا وبروسيا في الثالث عشر من أيلول ١٨١٤، وتألفت ما يعرف بـ " **لجنة الاربعة**"، بينما كانت فرنسا تمثل البلد الخاسر، أي أنها كانت في وضع تفاوضي ضعيف جداً، ولاسيما وأنها وافقت في معاهدة باريس على إعادة كل القلاع والتحصينات، الواقعة خارج حدود عام ١٧٩٢، إلى الحلفاء وعلى التخلي عن كل فتوحات نابليون ، والأراضي التي سبق أن ضمها إلى إمبراطوريته بالقوة. لذا كانت مشكلة تاليران هي الحفاظ على حدود فرنسا الطبيعية

والتاريخية، والحيلولة دون تقسيم البلاد. إلا أن الحلفاء راعوا جانب الملكية الفرنسية الجديدة التي كانت تتطلب قدراً كبيراً من اهتمام الدول ورعايتها حتى تلقى احتراماً وتأييداً من جانب الشعب الفرنسي ، ولاسيما وقد أعلن الحلفاء عدة مرات أنهم كانوا يحاربون نابليون لا الشعب الفرنسي، ولذلك استدعيت فرنسا إلى حضور المؤتمر دون المشاركة في المفاوضات السرية شأنها في ذلك شأن الدول الصغرى(خضر ، ٢٠١٦، ص ٣١٢ – ٣١٣). كما تبين ذلك برسالة بعثها تاليران للملك لويس الثامن عشر في التاسع عشر من تشرين الأول ١٨١٤، موضحاً فيها أن الدول الكبرى الأربع قد أظهرت تحالفها المستمر بعد الحرب، وسعت للسيطرة على شؤون أوربا بمفردها، معتقدة أن فرنسا منشغلة بأوضاعها الداخلية فتشارك شكلياً فقط في المؤتمر. وكانت الخطة الأساسية بريطانية، تهدف للحفاظ على التفوق البحري للمملكة المتحدة والسيطرة على التجارة العالمية، ومنع أي تهديد فرنسي. لتحقيق ذلك، حرصت بريطانيا على عزل فرنسا عن القوى البحرية الأخرى وتقوية التحالف بين النمسا وبروسيا، لضمان تنفيذ مخططاتها الأوروبية دون معارضة(Freksa , 1919, p 299). وعلى الرغم من ذلك، فأن مندوبها تاليران سعى لبذل جهداً كبيراً لتحقيق أهدافه معتمداً في ذلك على مساعدة طباخه كاريم، والصبية الفاتنة دوروتيه دي كورلاند زوجة ابن اخيه ادموند من جهة، والخلافات بين الدولة الأربعة الكبرى من جهة أخرى، فضلاً عن إعلانه من بداية الأمر أن فرنسا لا تطمع في شيء ما مطلقاً وكل ما ترغبه هو الدفاع عن القانون وحماية **الحقوق الشرعية، فضمن بذلك التفاف الدول الصغرى حوله كما ضمن إشراكه في مفاوضات الدول إشراكاً ادى إلى تمزيق وحدتهم حينما حانت الفرصة (خضر ، ٢٠١٦، ص ٣١٢ – ٣١٣؛ قاسم و حسني ، ١٩٢٩، ص ٧٤)**اتفقت الدول الأربع فيما بينها بشأن تقسيم وتوزيع المقاطعات التي آلت إليها نتيجة الحرب الأخيرة ومعاهدة باريس، على أن تُتاح لفرنسا وإسبانيا لاحقًا فرصة إبداء رأيهما وتقديم أي اعتراضات تريان لزوماً لها، لمناقشتها معهما. كما نصّ الاتفاق على ألا يفتح باب التفاوض مع هاتين الدولتين إلا بعد أن تُتم الدول الأربع، وبصورة مشتركة ونهائية، عمليات التقسيم الخاصة بأراضي دوقية وارسو، وألمانيا، وإيطاليا، ضمانًا لعدم الخروج عن الإطار المرسوم للمباحثات . ومن جانب آخر، أوضح الحلفاء أنه بما أن فرنسا استعادت حكومتها الشرعية، فإن الدول الأربع لا تعتزم حرمانها أو حرمان إسبانيا من المشاركة في أي نقاشات تتعلق بتقسيم ألأراضي، سواء كان لهما مصلحة مباشرة فيها أو كانت تمسّ مصلحة أوربا عامة، وذلك على خلاف ما كان سيجري لو أُبرم السلام مع نابليون بونابرت. وقد أثار ذلك القرار جدلًا مماثلًا عند عرضه في المؤتمر، غير أن تاليران تمكن مجددًا من تثبيت اعتراضاته، ولا سيما فيما يخص فكرة أن القوى الست الكبرى: إنجلترا والنمسا وبروسيا وروسيا وإيطاليا وإسبانيا، ستتولى وحدها الأعمال التمهيدية للمؤتمر، وتمكّن تاليران من استمالة كاسلريه إلى جانبه، الأمر الذي أحدث لأول مرة شيئًا من التردد والارتباك في صفوف الحلفاء(Freksa , 1919, p283)**تمكن تاليران بفضل مهاراته السياسية والدبلوماسية في دفع الدول للموافقة على انضمام فرنسا للجنة الرباعية التي تحولت عندئذ إلى "لجنة خماسية" التي جسدت المؤتمر بصورة فعلية. واستأثرت ببحث المشاكل والمسائل الهامة، وباتخاذ القرارات الحاسمة بشأنها(عمر، ٢٠٠٠، ص ٣٢؛ هريدي، ٢٠٠٧، ص ١٢٥). وبانضمام تاليران للجنة التوجيهية الأساسية تخلى عن فكرة عقد مؤتمر عام، ولم تطرح مسألة حقوق الدول الصغيرة مجدداً (Webster , 1918, p74)**انشأ المؤتمر إلى جانب اللجنة الخماسية عدداً من اللجان الأخرى، لإعداد التقارير ودراسة القضايا التفصيلية . فقد شكلت " **لجنة الإحصاءات**" التي اختصت بتعداد السكان في الأراضي التي يراد استبدالها ومنحها تعويضاً للحلفاء كجزء من التسويات، كما انشأت "**اللجنة الألمانية**" لبحث شؤون ألمانيا ووضع دستور جديد لها، و" **لجنة الثمانية**" فقد تألفت من أعضاء دول اللجنة الخماسية اضافة إلى ممثلي كل من البرتغال والسويد واسبانيا، وقد اقتصرت مهمتها على تلقي القرارات والبحوث الخاصة بمسائل الدول الأوربية، ودراسة تجارة الرقيق، ومسألة الاتحاد السويسري(رمضان، ١٩٩٦، ص ٢٠)كان لانضمام فرنسا ومشاركتها في أعمال المؤتمر على قدم المساواة مع الدول الكبرى عدة أسباب أبرزها: براعة تاليران ودهاؤه السياسي إذ تمكن من قيادة عدد كبير من وفود الدول الصغرى مطالباً بأن تكون جلسات المؤتمر عامة وعلنية، يشارك فيها الجميع، كما نجح في استغلال الخلافات والتناقضات القائمة بين الحلفاء، مما اكسبه مكانة قوية دفعتهم إلى الاستعانة به لتقريب وجهات النظر فيما بينهم، إلى جانب ذلك، حرص المؤتمرون على مراعاة لويس الثامن عشر ودعم سلطته لتثبيت أركان عرشه في مواجهة خصومه(نوار و نعنعي، ٢٠١٤، ص ١٤٥)كشفت المناقشات الاولى لمؤتمر ڤينا عن وجود أهداف عامة، اتفق ممثلو الدول المشاركة على وجوب تحقيقها في أوربا، بما يضمن استقرار أوربا وإعادة تنظيم أوضاعها السياسية بعد مرحلة الاضطرابات والحروب. وقد تضمنت القضاء على الأنظمة الجمهورية و الثورية في أوربا كلها، حفاظاً على أمن الدول الكبرى وسلامتها، ومحاربة الافكار التحررية الثورية التي نشرتها الثورة الفرنسية. كما تضمنت إعادة كل الحكام والأمراء الذين أطاح بهم نابليون إلى عروشهم، والحفاظ على الأنظمة الاجتماعية التقليدية، وتأمين سلامة العروش بكل الوسائل. كما سادت قناعة بعدم الثقة بفرنسا وعدها مصدراً دائماً للشغب والفوضى. والتمرد على الانظمة في أوربا، ولذا رأت القوى الكبرى ضرورة إضعاف فرنسا سياسياً وعسكرياً، وتقوية التيارات المحافظة فيها، لمنعها من تهديد استقرار أوربا بثورة جديدة (نزار ، ١٩٨٥، ص

١٤٠)جلس ساسة ڤينا حول الخارطة يقطعونها وهم يتحدثون عن السلم ووجوب إعادته بعد حروب دامت ثلاثة وعشرون عام مهما كلف الأمر. ولكن النقمة على نابليون والثورة الفرنسية أعمتهم. فنسوا أن العام ١٨١٥ غيره عام ١٧٨٩ فسعوا لتحقيق أهداف عدة أهمها : إرجاع العروش إلى أصحابها الشرعيين (الملوك القدماء). واقتسام مكاسب النصر، متناسين المبادئ التي نادت بها الثورة الفرنسية واهمها: الديمقراطية أو حرية الافراد ، القومية أو حرية الشعوب واستقلالها تلك المبادئ التي لم تلقى قبولاً لدى رجال الدول الكبرى في المؤتمر(برونت ، ٢٠٠٦، ص ٤١١ – ٤١٢). واجه المؤتمر قضايا معقدة (حدود الراين، بلجيكا وهولندا، الدنمارك والسويد، سويسرا، ايطاليا، الاتحاد الالماني، الأنهار الدولية وتجارة الرقيق) ولعل من أبرزها التي أججت النزاع وبرزت إلى الواجهة بصورة واضحة ، قضية "**بولندا وسكسونيا**". إذ سعت روسيا في ايجاد دولة في بولندا (التي حولها نابليون إلى دوقية وارسوا العظمى) خاضعة للقيصر. فساعدتها بروسيا راجية بذلك أن تساعدها روسيا بالحصول على أملاك سكسونيا عوضاً عما خسرته في الجهة الشرقية، مدعية أن ذلك عقاباً يناله ملك سكسونيا لمعاهدته نابليون بعد ان نبذه أعضاء اتحاد الراين(برونت ، ٢٠٠٦، ص ٤١٢). فعارض مترنيخ مستشار النمسا ذلك الأمر وأيده كاسلري وزير خارجية بريطانيا ، فقد خشيت بريطانيا من امتداد النفوذ الروسي نحو الغرب، بينما خشيت النمسا اختلال التوازن الدولي في ألمانيا باتساع نفوذ بروسيا(حسين و نعمة ، ١٩٨٢، ص ١١). ومن هنا انقسمت الدول المشاركة في مؤتمر ڤينا إلى معسكرين الأول ضم النمسا وبريطانيا والثاني تألف من روسيا وبروسيا، الامر الذي ادى إلى توتر العلاقات بين هذه الدول إلى درجة التهديد والتلويح بالحرب. إذ توصلت كل من النمسا وبريطانيا إلى عقد معاهدة سرية في الثالث من كانون الثاني ١٨١٥، ثم انضمت إليهما فرنسا في التاسع من كانون الثاني، حين كان تاليران المُستبعد من المشاركة من تلك المناقشات الحاسمة، يعمل على إعداد خططه الخاصة ، كما أسهم كلٌّ من كاستلريه ومترنيخ، من خلال إطلاع تاليران على جانب من خلافاتهما، في دفعه نحو تبنّي موقف أكثر تصالحًا(Webster , 1918, p 68)، فقد اعتقد تاليران "**ان الفرصة باتت مناسبة لكسر طوق العزلة الأوربية المفروضة على بلاده**"(المهداوي، ٢٠١٤، ص ٦٦). ولاسيما وان تاليران اول من نادى مبدأ الحقوق الشرعية (التي بموجبها أعيد آل بوربون إلى فرنسا، وثبتت سلطان البيت المالك في سردينا. ولم يقم أي اعتبار للقومية أو لرغبات السكان)(هريدي، ٢٠٠٧، ص ص ١٢٥– ١٢٦). فقد عارض اغتصاب أملاك سكسونيا، وأعلن تأييده لمطالب النمسا وبريطانيا في ذلك الشأن. وبذلك أصبح الهدف المشترك للنمساويين والبريطانيين والفرنسيين التصدي بحزم للحيلولة دون السماح لروسيا وبروسيا بتنفيذ مشاريعهما المعلنة . مما اضطر الاسكندر على التراجع وحذت بروسيا حذوه، وبالتالي حصلت روسيا على القسم الأكبر من بولندا وحصلت بروسيا على حوالي نصف سكسونيا، وبذلك تم الأمر وانقضى الخلاف الذي كان من الممكن أن يؤدي إلى نشوب نزاع مسلح(المهداوي، ٢٠١٤، ص ٦٧) . الا أن تلك التسوية لم تؤثر في تحسين العلاقات بين الحلفاء، ودرء التصدع الذي حدث في كتلة التحالف الأوربي ضد فرنسا.

المبحث الثالث: موقف فرنسا من مقررات مؤتمر ڤينا ونتائجه

بناء على بنود مقررات مؤتمر ڤينا الذي تم توقيع معاهدته من قبل لجنة الثمانية في التاسع من حزيران ١٨١٥، اتخذ الحلفاء التدابير اللازمة لإحاطة فرنسا بدول وولايات قوية لحماية وسط أوربا وشرقها من الخطر الفرنسي تمنعها من الاعتداء على غيرها، فضمت إلى بيدمنت " سردينيا " جنوب فرنسا سافوي وجنوه ومنحت بلجيكا إلى هولندا لتستطيع الوقوف أمام محاولات فرنسية توسعية في المستقبل، وقد سميت بـ" الأراضي المنخفضة" (Morris , 1916 , p 9). ولتعزيز إحكام السيطرة على فرنسا عوضت بروسيا عما فقدته في منحها نصف ولاية سكسونيا، وارض على الضفة اليسرى من نهر الراين وبورمينا السويدية مقابل تنازلها للدنمارك عن دوقية لونبرج. وأقر المؤتمر ايضاً تسويات أخرى منها انشاء الاتحاد السويسري بعد إعادة استقلالها الذي فقدته حينما خضعت لنابليون، والاعتراف باستقلال الدنمارك بعد انتزعت منها النرويج التي ضمت إلى السويد مقابل تنازلها عن فنلندة لصالح روسيا، ولوقوفها إلى جانب الحلفاء ضد نابليون عام ١٨١٣ كمكافأة لها. وقرر تقليص الولايات الألمانية التي كان عددها (٤٠٠) إمارة إلى ٣٩ ولاية، في اتحاد ألماني من أجل ضمان سلامتها(Stearns, 1947, p. 41)أما النمسا، الدولة المستضيفة فقد حصلت على مكاسب عدة، فقد حرصت على إعادة نفوذها في ايطاليا، فنالت ولاية البندقية مقابل تخليها عن بلجيكا وساحل دلماش الادرياتي ، كما استعادة سيطرتها على لمبارديا في شمالي ايطاليا بما في ذلك مدينة ميلانو. وأعيد للبابا في ايطاليا ممتلكاته وانشئت مملكة نابلولي و أعيد اكثر الامراء الايطاليين إلى اماراتهم، باستثناء الأراضي التي خضعت للنمسا التي اصبحت تابعة للنمسا اما عن طريق الحكم المباشر أو غير مباشر، أو ألحقت بمملكة سردينيا. فلم تعد ايطاليا إلا تعبيراً جغرافياً، وأصبح على الايطاليين من اجل تحقيق وحدتهم القضاء على النفوذ النمساوي. وبذلك خرجت النمسا من تسوية ڤينا ظافرة بأكبر قدر من الغنيمة (برون، ٢٠٠٦، ص ٤١٣). أما بريطانيا، لم تكن طرفاً في عملية توزيع الأراضي الأوربية، الا إنها خرجت من الحروب النابليونية بنظام صناعي جديد وإمبراطورية جديدة، فقد كرست جهدها وحصلت على مكاسب

فيما وراء البحار في الاملاك الهولندية ، وفي جنوب افريقيا مستعمرة الكاب وجزيرة سيلان، وعلى جزيرة مالطا وجزيرة هلجولاند في بحر الشمال. كما حصلت على مقاطعة الهانوفر الألمانية، وعلى جزيرة موريس وسانت لويسا مستعمرات فرنسية سابقاً (عبد الرحمن، د.م، ص ١٨٥ - ١٨٦). وبذلك يمكن القول إن الاتفاقات التي تمت في مؤتمر ڤينا في اقامة جدار عازل من المناطق المحيطة بفرنسا، نجحت بمنع قيام دولة قوية توسعية كالأمبراطورية النابليونية، ولمنع تسرب الأفكار الثورية إلى بقية انحاء أوربا.و تجدر الإشارة إلى أنّ المؤتمر قد اعتمد قرارات عامة ومهمة، أهمها إلغاء تجارة العبيد التي عدت منافية للمبادئ المدنية والإخلاقية العامة، إذ تمكن كاسلريه من استصدار إدانة دولية لتجارة العبيد، وعلى الرغم من موافقة جميع الدول ومن ضمنها فرنسا، امتنعت البرتغال وإسبانيا عن الالتزام بها على الرغم مما قدم لهما من دعم ، وعدتا الإدانة مظهرًا من مظاهر النفاق البريطاني، إلا أن لتلك القرارات أثرها الايجابي في تنظيم وإدامة العلاقات الدولية (Webster , 1918, p 73؛ Morris , 1916 , p18)غادر نابليون منفاه سراً في السادس والعشرين من شباط ١٨١٥، بعد سماع ما آلت إليه الأوضاع في بلاده (سعى الملك الجديد لويس الثامن عشر إلى إعادة البلاد تدريجياً إلى الوراء، فأعاد إلى النبلاء حقوقهم وفرض الرقابة على الصحافة، وسرح الضباط الجمهوريين من الجيش، ومنح ابناء النبلاء مناصب وامتيازات واسعة، واستبدل علم الثورة بعلم آل بوربون الابيض، وفي المجال الاقتصادي تأزمت الأوضاع وانتشرت البطالة فصار الشعب يتمنى عودة نابليون)، فقد استقبله الشعب الفرنسي استقبال الأبطال ودخل باريس في أذار بعد هروب لويس الثامن عشر. فأعاد نابليون ترتيب السياسة الفرنسية معلناً أن سياسته داخلية صرفة، فاهتم بالمجلس التشريعي الذي أقره وقبل معاهدة باريس(الدليمي ، ٢٠١٦، ص ١٦٦؛ Guerard, 1914, p 92)حطمت عودة نابليون من إلبا المجهود العظيم الذي بذله تاليران في المؤتمر وحرمته من نفوذه، وإعادة أواصر التضامن وترسيخ أسس التفاهم المتبادل بين الدول مرة أخرى، فسرعان ما تناسى الساسة الذين كانوا يتجادلون حول شروط معاهدة ڤينا، خلافاتهم في مواجهة الخطر المشترك. فجددت الدول الكبرى معاهدة التحالف فيما بينهما وأصدرت بياناً أعلنت فيه أن نابليون خارجاً على القانون، ويجب قتاله (حسين و نعمة ، ١٩٨٢، ص ١٢). مما جعل تاليران يعيد التفكير في مواقفه بدقة أكثر. ومنذ ذلك الحين، تعمّد اتباع أسلوب بطيء ومدروس في تحركاته السياسية خلال الأشهر التالية مستندًا أحيانًا إلى ادعاء اعتلال صحته، ولا سيما آلام الكبد التي كان يعدّ العناية بها واجبًا أساسيًا للدبلوماسي بعد انتهاء أي مؤتمر. وقد بدا أنه بحاجة لذلك العذر خلال فترة المئة يوم. كما أن زيارة مونترون، الذي أرسله فوشيه إلى ڤينا لجسّ نبض تاليران في قضايا عدة ، لم تدفعه إلى تغيير خططه أو التخلي عن عزمه على السفر إلى كارلسباد لتلقي العلاج (Beuve , 1870, p 46)أعدت الدول الكبرى غزواً ثانياً لفرنسا في التاسع من حزيران ١٨١٥، وقعت معاهدة ڤينا وفي الثامن عشر من حزيران دارت معركة واترلوا الحاسمة التي خسرها نابليون. وإعادة الحلفاء احتلال باريس وجاءوا معهم بلويس الثامن عشر(حسين و نعمة ، ١٩٨٢، ص ١٢). وتدفقت قوات الاحتلال التي بلغ عددها ٩٠٠ ألف جندي، إلى فرنسا واستقرت فيها على نفقة السكان المحليين. وبما أنها كانت في الوقت ذاته، تتلقى إعانات من بريطانيا العظمى، لم تبدِ أي رغبة في الانسحاب. وقد أتسم سلوك القوات البروسية وغيرها من القوات الألمانية تجاه الشعب الفرنسي بدرجة كبيرة من العنف والتعسف، وهو سلوك يفتقر إلى أي مبرر عسكري وأخلاقي ، ويستحق الإدانة الشديدة وهو ما عبر عنه بالفعل الوزراء البريطانيون. غير ان اولئك الوزراء وعلى الرغم من إدانتهم فقد مارسوا ضغوطاً لدفعه إلى تبني سياسة صارمة تجاه نابليون وقادته العسكريين. وفي ظل تلك الظروف السياسية المعقدة، لم يكن من السهل إبرام معاهدة. وعلى الرغم من تكليف تاليران بمهمة التفاوض ، إلا أنه فقد ثقة الملك لويس الثامن عشر. كما أن دول الحلفاء ذاتها لم تكن متفقة على طبيعة الشروط التي سيتم تقديمها. واستمر الصراع لمدة شهرين، حيث دار صراع حاد بين دول الحلفاء حول الشروط التي ينبغي فرضها على فرنسا، واستمرت الخلافات بين هذه الدول قرابة الشهرين، كما شهدت تلك المدة صراعاً كبيراً حول بنود الاتفاق المقترح، الأمر الذي جعل دور تاليران هامشياً اقتصر على المراقبة عاجز على التأثير في مجريات الاحداث. وفي العشرين من أيلول قدمت المقترحات إلى تاليران مع إدخال تعديلات طفيفة عليها. فرفض تاليران قبولها (Webster , 1918, p139). وقدم استقالته في الثالث والعشرين من أيلول (ناشد مترنيخ وكاسلري وستيوارت تاليران للاستمرار في كونه "**دبلوماسي أوروبي مهم**"، واشار دوق باسكييه المستشار الفرنسي، بأن جميع وزراء الخارجية أعربوا عن أسفهم الشديد لتقاعده، على الرغم من اعترافه بأنه لم يُشاركهم هذا الشعور. في حين اظهر القيصر ارتياحاً كبيراً لذلك. بينما قبل لويس استقالته بمزيج من القلق والارتياح. مؤكدا له بقوله " **أشكرك على حماستك، فأنت بلا عيب، ولا شيء يمنعك من العيش بسلام في باريس**". فأجاب تاليران: " **لقد تشرفت بتقديم خدمات جليلة للملك، ما يجعلني أؤمن أنها لم تُنسَ. لا أرى كيف يمكن لأي شيء أن يُجبرني على مغادرة باريس. سأبقى هنا، وسيسعدني أن أعلم أن الملك لن ينقاد إلى اتباع نهج قد يُعرّض سلالته وفرنسا للخطر**" (Mccaabe, 1906, p225))، بعد أن أصبح موقفه ضعيفاً بفعل تصاعد الضغوط السياسية الداخلية، ولاسيما من قبل الملكيين الذين يؤدون التنازل عن ألأراضي. فتولى من بعده الدوق ريشيليو، وهو مهاجر فرنسي عرف عنه الأخلاص والنزاهة، وكانت تربطه علاقة وثيقة بالقيصر

الروسي الكسندر. وقد وافق الدوق ريشيليو على الشروط المطروحة، وتمكن بفضل نفوذ القيصر، من انتزاع بعض التعديلات الإضافية لصالح فرنسا(Webster , 1918, p139). وفي العشرين من تشرين الثاني ١٨١٥ فرض الحلفاء معاهدة باريس الثانية على فرنسا، التي أتت شروطها أشد وأقسى من سابقتها، فقد امتدت مفاوضات المعاهدة الجديدة لأكثر من أربعة أشهر. إذ نصت على فرض غرامة حربية على فرنسا قدرها (٧٠٠) مليون فرنك، وإعادة فرنسا إلى حدودها عام ١٧٩٠، (بدلاً من حدود عام ١٧٩٢ التي نصت عليها معاهدة باريس الأولى) وإبقاء جيش قوامه ١٥٠٠٠ جندي في فرنسا لمراقبة تطبيق المعاهدة، وبنهاية الامبراطورية النابليونية تطلب الأمر رسم خارطة جديدة لأوربا تنسجم مع مصلحة الدول المنتصرة، وتمحوا التغيرات التي أحدثها نابليون في أوربا(Morris, 1916 , p5؛ نوار و الدين، ١٩٩٩، ص ٣٠٩؛ العكيلي، ٢٠٠٥، ص ٨٠). على الرغم من أن عودة نابليون طرحت مواضيع جديدة للمناقشة، إلا أنها وفرت أيضًا سببًا آخر للتعجيل بالاختتام. ومع ذلك، فقد استمر المؤتمر أربعة أشهر إضافية (Webster , 1918, p 119)كان لسياسة بريطانيا دور كبير في صياغة معاهدة باريس الثانية الجديدة مع فرنسا ، إذ عوملت تلك المملكة المهزومة بالاعتدال، ولو قدر لبروسيا تحقيق مطالبها لكانت بعض المقاطعات الفرنسية (الالزاس واللورين) ضمن التنازلات المفروضة على فرنسا. غير ان ولنكتون وكاسلرية أدركوا أن أضعاف أسرة ال بوربون وزعزعة مكانتها يشكل خطراً أعظم من فرض خسائر إقليمية كبيرة على فرنسا. ومن ثم رأت بريطانيا وأوربا عامة بوجوب تقديم كل دعم ممكن للأسرة الملكية الفرنسية بما يضمن استعادة ولاء الشعب الفرنسي لها والحفاظ عليه(فشر، ١٩٧٢، ص ١٤٤)كان موقف تاليران في مؤتمر ڤينا عام ١٨١٥ دقيقاً وحرجاً، فقد كان ممثلاً لفرنسا التي حاربت الدول الأوربية طوال خمسة وعشرون عاماً وهو يعلم ان أبواب المؤتمر موصده في وجهه كما كان معروفاً عنه بتلطخه لحد ما بالثورة ونابليون وحياته الماضية لا تدعو للثقة لكن استطاع أن يستغل ظروف المؤتمر وأن يجعل لنفسه في ڤينا شأن عظيم كان موقف تاليران في مؤتمر ڤينا عام ١٨١٥ شديد الدقة والحساسية، فقد مثل فرنسا التي خاضت حروباً طويلة ضد الدول الأوروبية طوال خمسة وعشرين عاماً، وقد أدرك أنّ أبواب المؤتمر لن تُفتح له بسهولة. ولاسيما بعد ما جاءت به معاهدة باريس الاولى بأن لا تشترك فرنسا في المفاوضات المتعلقة بأوربا، كما أنّ صِلاته السابقة بالثورة وبنابليون، فضلاً عن ماضيه السياسي، لم تكن تمنحه ثقةً كاملة لدى الدول الكبرى. ومع ذلك، استطاع تاليران استثمار ظروف المؤتمر ببراعة، وانتزاع مكانة بارزة لنفسه في ڤينا، مما أعاد لفرنسا دورًا فاعلًا في المداولات الدبلوماسية الأوربية. وقد ذكر بعض المؤرخين الفرنسيين وعلى رأسهم البرت سوريل بأن تاليران لم ينتصر في فتح الأبواب التي كانت المغلقة فحسب ، بل نجح في أن يكون له صوت في تسوية عام ١٨١٥ لا يقل عن أي دولة أخرى(الجمل و ابراهيم، ٢٠٠٠، ص ١٦٣)وجد البريطانيون أن خير ضمان لتطبيق مقررات مؤتمر ڤينا هو قيام تحالف أوربي أكثر واقعية واضمن في نتائجه، وقد انطوت فكرة ذلك الاتحاد على انشاء تحالف بين الدول التي اشتركت في النضال ضد فرنسا من جهة، ثم السعي من أجل المحافظة على السلام عموماً من جهة أخرى. واستطاع كاسلريه على وجه الخصوص أن يظفر بتحديد المبدأ الذي تضمنته معاهدة شومون السابقة، من حيث المبادرة بتقديم القوات العسكرية إذا وقع عدوان جديد من جانب فرنسا. وفي اليوم الذي وقعت فيه معاهدة باريس الثانية مع فرنسا، أبرمت الدول الكبرى بينها تحالفاً رباعياً "Quadruple Alliance"، في العشرين من تشرين الاول ١٨١٥، كان الأساس الذي قام عليه نظام الاتحاد الاوربي في السنوات التالية (عمر و القوزي، ١٩٩٩، ص٤٢). وقد أقروا فيه معاهدة باريس الثانية، ودعم مقررات مؤتمر ڤينا والحفاظ على الوضع الراهن آنذاك، في أوربا ولو بالقوة العسكرية لمدة عشرين عاماً، كما هدف التحالف لمنع انتشار المبادئ الاجتماعية والاقتصادية للثورة الفرنسية (نوار و نعنعي ٢٠١٤، ص ١٤٨). وعلى أثر ذلك اجتمع سفراء الحلفاء أسبوعياً في باريس لمراقبة سير الحكومة الفرنسية. آخذين بالتدخل في سياسة فرنسا الداخلية مقدمين النصح إلى الملك الفرنسي في السياسة الواجب اتباعها، متصلين بالاحزاب السياسية، ولاسيما حزب الملكيين المتطرفين. وبالتالي أسفر ذلك عن إضفاء طابع معادٍ لفرنسا على أعمال المؤتمر، على الرغم من أن هذا الطابع لم يكن قائمًا في الأصل، الأمر الذي دفع الدول إلى اتخاذها نموذجًا يُحتذى، كما أُدخلت فرنسا في حالة من العزلة الأوربية، لتواجه منفردة أي تحالف كان يتشكّل بين الحين والآخر (حاطوم، ١٩٧٩، ص ٢٨٥)كان من نتائج التحالف الرباعي، النجاح في ضمان تنفيذ الشروط التي فرضها المنتصرون في الحرب على فرنسا بمقتضى معاهدات الصلح. وتسوية عدد من المشاكل التي ظهرت فيما بعد دون اللجوء إلى الحرب (السبكي، ١٩٨٥ ، ص ١٦٤). وقد لقى ذلك التحالف معارضة شديدة من الرأي العام البريطاني، مما جعل الحكومة البريطانية تتخلى عنه تدريجياً فيما بعد خوفاً من أن تجر أراء مترنيخ و أفكاره (سعى مترنيخ لجعل الحلف الرباعي أداة فاعلة لقمع الحركات الحرة في جميع انحاء أوربا، بينما رأى كاسلريه انه ليس من واجب الدول الأربعة التدخل في الشؤون الداخلية للدول وسياساتها المحلية) بريطانيا إلى التدخل في شؤون القارة الأوروبية الداخلية وذلك ما لا يريده عامة البريطانيين (نوار و نعنعي ٢٠١٤، ص ١٤٨). وتمثلت النتيجة الثانية للتحالف الرباعي في نشوء حركة قومية في فرنسا اخذت تعبر عن آرائها السياسية بوضوح ، ففي الوقت الذي كان فيه قوات الحلفاء لاتزال قائمة على الأراضي الفرنسية، نشر سالفاندي

في أذار سنة ١٨١٦ كراساً "التألب وفرنسا"، ثم توالت بعد ذلك الكراريس والمنشورات التي عبرت عن الوعي المتنامي، فضلا عن تصاعد دور الرأي العام والصحافة في معارضة جيوش الحلفاء. وقد تزامن ذلك التطور مع تصاعد حالة الاستياء من سياسات الاحتلال، وكذلك على تشدد بعض الملكيين المتطرفين بمطالبهم داخل المجلس، الأمر الذي انعكس في بروز مطالب قومية واضحة وفي تنامي النزعة الرافضة لمعاهدات عام ١٨١٥ ولسياسات حكم آل بوربون بعد عودتهم إلى فرنسا. كما أسهم تسريح الجيش الفرنسي بعد الهزيمة وعودة العسكريين القدامى إلى مناطقهم في توسيع قاعدة الوعي القومي، إذ شكل أولئك عناصر فاعلة في تنظيم المقاومة وقيادة التحركات المناهضة لقوات الاحتلال. فضلا عن ذلك، أسهمت الدعوة البونابرتية في ترسيخ الوعي القومي، إذ تمحورت حول إبراز شخصية نابليون بونابرت بوصفه رجل الثورة الفرنسية، حتى غدت الثورة في الوعي العام مرتبطة باسمه ارتباطاً وثيقاً. وقد أسهم ذلك التوظيف الرمزي إلى ظهور عدد من الكراريس والمؤلفات التي مجدت بونابرت وصورته جندياً للثورة ومجسدا لتطلعاتها الوطنية. كما ارتبطت بتلك الحركة أفكار محورية تمثلت في تعظيم مكانة فرنسا، وبلورة برنامج قومي يسعى لحماية استقلالها، والتأكيد على مفهوم الحدود الطبيعية باعتباره أحد مرتكزات الفكر القومي، وقد استمرت تلك المضامين القومية في الحضور داخل الحياة السياسية حتى في العهد الرجعي، إذ عبرت عنها تيارات ذات طابع قومي واتخذت من الخطاب الوطني إطاراً عاماً لنشاطها وأهدافها(حاطوم، ١٩٧٩، ص ٢٨٥– ٢٨٧)في الوقت الذي وضعت فيه الدول الأوربية مشروعاتها ضد فرنسا موضع التنفيذ بغرض نشر السلام وحماية الشعوب الأوربية من غزو الطامحين الفرنسيين، خرج القيصر الروسي الكسندر الأول بفكرة "**الحلف المقدس**" "The holly Alliance" الذي تشكل انطلاقاً من فكرة أن يصبح الملوك أخوة وأن و يستعينوا في معاملاتهم مع بعضهم بمبادئ المسيحية وتعاليمها. وأراد القيصر الروسي ان يستند الاتحاد الاوربي الذي يدعوا إليه على كل المبادئ والتعاليم التي جاءت بها المسيحية. أي أنه أراد أن يتخذ من الدين أساساً تقوم عليه العلاقات بين الدول(Richards,1943, p 67 ؛عمر و القوزي، ١٩٩٩، ص ٤٣– ٤٤). لذلك يمكن اعتبار فكرة القيصر تعبيراً عن رغبته في القضاء على كل محاولة ديمقراطية او تحررية في المستقبل. وقد انضم إلى التحالف كل من النمسا وروسيا وبروسيا وتم عقده في السادس والعشرين من أيلول ١٨١٥ ، وطالب المتحالفون الدول الأوربية الانضمام اليهم. إلا أنه لم يهتم زعماء وملوك أوربا بتلك الدعوة كثيراً، وعلى الرغم من تعاطف بريطانيا (بعث الوصي على العرش البريطاني رسالة شخصية إلى القيصر الروسي يبدي تعاطفه معه) مع ذلك التحالف إلا أنه أثار دهشة رجال السياسة إذ وصفه وزير خارجيتها كاسلريه بأنه قطعة من الهراء والتصوف الرفيع، كما وصفه مترنيخ بأنه طبل أجوف (الادهمي، ١٩٨٥، ص ٧٠). إلا أن فرنسا الدولة التي كانت تبحث عن مجال تعود به للظهور في الساحة الأوربية وتغطي على العزلة السياسية التي آلت إليها بعد بونابرت ، فقد وافقت على ذلك التحالف وانضمت إلى المتحالفين الثلاثة. أما الأحرار الفرنسيين ومؤيدو الثورة فقد اعتبروا التحالف دعوة صارخة لعودة الرجعية والتخلف للدول الأوربية وقتلاً صريحاً لكل مبادئ الثورة الفرنسية التي فصلت بين الدين والسياسة وهكذا يضمن القيصر الروسي وحلفاؤه استمرار الحالة القائمة التي أوجدوها وفق قرارات مؤتمر ڤينا كونها حالة مقدسة لا يمكن تغيرها(السبكي، ١٩٨٥، ص ١٦٦)يبدوا ان التحالفات الأوربية لعام ١٨١٥ (الحلف الرباعي والحلف المقدس) سعت لضمان تنفيذ شروط مؤتمر ڤينا التي فرضها المنتصرون على فرنسا بمقتضى معاهدات الصلح ، وللمحافظة على الحكم المطلق وعزل فرنسا عن التحالفات الأوربية مما أدى لتنامي الوعي القومي في فرنسا وظهور حركات ضد جيوش الحلفاء.

الخاتمة:

يتضح مما تقدم ، أن مؤتمر ڤينا (١٨١٤ –١٨١٥) كان من أهم المؤتمرات التي عقدت في القرن التاسع عشر، وذلك نتيجة للتطورات السياسية التي اجتاحت أوربا للسنوات ١٧٨٩– ١٨١٥، والتي عدت إحدى أبرز الحقب التاريخية في العالم عامة واوربا خاصة، نظراً لما أحدثته من تحولات جوهرية، أسفرت عن وضع حد لمرحلة كاملة في مسار العلاقات، ومهدت في الوقت ذاته لظهور مرحلة جديدة في العلاقات الدولية. إذ أوجدت الثورة الفرنسية والامبراطورية النابليونية جملة من التطورات والتغيرات السياسية والإقليمية في أوربا ، تركت أثرا كبيراً على مجمل ظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكر الاوروبي والعالمي.سعى مؤتمر ڤينا للتوصل إلى تسوية سلمية مع فرنسا وما يتبعه من إحلال السلام في أوربا . إلا أن الهدف الحقيقي للمؤتمر هو إعادة رسم الخريطة السياسية لأوربا وإعادتها للوضع القائم قبل اندلاع الثورة الفرنسية وحكم نابليون، ومحاربة الأفكار القومية والثورية التي نادت بحق الشعوب في تقرير مصيرها. بما يضمن مصالح الدول الكبرى المنتصرة في الحرب. وبما يكفل حماية تلك الامبراطوريات والممالك من انتشار أفكار الحرية والديمقراطية التي روجت لها الثورة الفرنسية ، وذلك بإقامة جدار عازل من الولايات المحيطة بفرنسا لمنع تسرب تلك الافكار إلى بقية أوربا، ولمنع عودة فرنسا إلى التوسع مستقبلاً.اقتصرت اجتماعات مؤتمر ڤينا على الدول الأربعة الكبرى (بريطانيا، النمسا ، روسيا وبروسيا)، على الرغم من كثرة عدد الملوك والأمراء المشاركين فيه، في حين جرى استبعاد فرنسا المهزومة من المشاركة

الفعلية من أعمال المؤتمر. ولكن تمكنت الدبلوماسية الفرنسية وبفضل مهارات وزير خارجيتها تاليران السياسية والدبلوماسية في دفع الدول الأربعة الكبرى للموافقة على انضمام فرنسا للجنة الرباعية، التي تحولت إلى لجنة خماسية جسدت المؤتمر بصورة فعلية. واستطاع بذلك أن يعيد لفرنسا حدودها القديمة، وأن ينجح في تشكيل **تحالف سري** ضمّ بريطانيا والنمسا وفرنسا لمواجهة روسيا وبروسيا، كما أجبر القيصر ألكسندر على الاكتفاء بجزء من بولندا بدل السيطرة عليها كاملة، ومنع بروسيا من ضم مملكة ساكسونيا بالكامل. وبذلك أدرك تاليران مستندًا إلى مواهبه السياسية البارزة، طبيعة الدور الذي ينبغي أن تقوم به فرنسا في مؤتمر ڤينا ، وما يتوجب عليها فعله. فلم يتخذ تاليران موقف المدافع المباشر عن مطالب بلاده، بل تبنّى نهجًا أوسع يقوم على الدفاع عن مبادئ القانون الدولي والسلام الاوربي وضرورة تأسيس العلاقات الدولية على معاهدات راسخة تحدّ من نزعات التوسع والطموح. وبتلك الاستراتيجية جعل تاليران صوت فرنسا يتحدث باسم أوربا بأكملها، لا باسم مصالحها الوطنية فحسب، فكان لذلك أثره في محو صورة فرنسا المعتدية والمهزومة من أذهان المجتمعين في المؤتمر. كما لم تضع الدول الأوربية الكبرى لنفسها سياسة واضحة ومحددة تُصرّ على تطبيقها في مؤتمر ڤينا عام ١٨١٥، على خلاف ما فعلت فرنسا بقيادة تاليران، الأمر الذي أتاح له فرصة ثمينة استغلّها بمهارته السياسية، فوجد منفذًا يتيح له التأثير في مجريات المباحثات وتوجيهها بما يخدم رؤيته وبالتالي أسهمت الدبلوماسية الفرنسية في الحد من العقوبات المفروضة على فرنسا والحفاظ على مكانتها الدولية ضمن التوازن القوى الدولي.

المصادر

- حامد، ا. (٢٠١٥). تاريخ العالم منذ فجر التاريخ وحتى القرن العشرين. الجيزة: دار طيبة للطباعة.
- السبكي، ا. (١٩٨٥). أوربا في القرن التاسع عشر. فرنسا في مئة عام. جدة : عالم المعرفة للنشر والتوزيع.
- الدليمي، ا. ت. ا. (٢٠١٦). دراسات في تاريخ أوربا من عصر النهضة وحتى مؤتمر فينا ١٤٥٣ – ١٨١٥. العراق: المطبعة المركزية.
- برون، ج. (٢٠٠٦). تاريخ أوربا الحديث. (ترجمة علي المرزوقي). عمان: الاهلية للنشر والتوزيع.
- خضر، خ. (٢٠١٦). تاليران الشيطان الاعرج " رمز الدهاء السياسي". لبنان: المؤسسة الحديثة للكتاب.
- راشد، ز. ع. (١٩٨٦). تاريخ أوربا الحديث في القرن التاسع عشر. القاهرة: دار الفكر العربي. ج٢.
- الجمل، ش. ع. و ابراهيم، ع. ع. (٢٠٠٠). تاريخ أوربا من النهضة حتى الحرب الباردة. القاهرة: المكتب المصري لتوزيع المطبوعات.
- العكيلي ، ص. ح. (٢٠٠٥). فرنسا بين ثورتين ١٧٨٩– ١٨٣٠. عمان: مؤسسة الوراق.
- هريدي، ص. (٢٠٠٧). أوربا من الثورة الفرنسية حتى الحرب العالمية الاولى. الاسكندرية: دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر.
- عبد الرحمن، ع. (د.م). التاريخ الاوربي الحديث والمعاصر. القاهرة: دار الكتاب الجامعي.
- نوار، ع. س. و نعنعي، ع. (٢٠١٤). التاريخ المعاصر. أوربا من الثورة الفرنسية حتى الحرب العالمية الثانية. بيروت: دار النهضة العربية.
- نوار، ع. (١٩٨٥). التاريخ الحديث. أوربا من الثورة الفرنسية حتى الحرب الفرنسية البروسية. دار الفكر العربي .
- نوار ، ع. و جمال الدين، م. م. (١٩٩٩). التاريخ الاوربي الحديث من عصر النهضة حتى نهاية الحرب العالمية الاولى. دار الفكر العربي.
- البطريق، ع. (١٩٧٤). التيارات السياسية المعاصرة ١٨١٥– ١٩٦٠. بيروت : دار النهضة العربية للطباعة والنشر.
- رمضان، ع. (١٩٩٦). تاريخ أوربا والعالم الحديث من ظهور البرجوازية الأوربية إلى الحرب الباردة. مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب. ج٢.
- المهداوي، ع. هـ. ع. (٢٠١٤). تاريخ أوربا الحديث (١٧٨٩ – ١٨٧٠). بغداد: مكتبة دجلة.
- عمر، ع. ع.(٢٠٠٠). تاريخ أوربا الحديث والمعاصر (١٨١٥ – ١٩١٩). مصر: دار المعرفة الجامعية.
- عمر، ع. ع. و القوزي، م. ع. (١٩٩٩). دراسات في تاريخ أوربا الحديث والمعاصر ١٨١٥ – ١٩٥٠. بيروت : دار النهضة العربية.
- حسين، ف. و نعمة، ك. هـ. (١٩٨٢). التاريخ الاوربي الحديث ١٨١٥ – ١٩٣٩. بغداد.
- قاسم ، م. و حسني، ح. (١٩٢٩). تاريخ القرن التاسع عشر في أوربا منذ عهد الثورة الفرنسية حتى نهاية الحرب العظمى. القاهرة : مطبعة دار الكتب المصرية. ط٦.
- الادهمي، م. م. (١٩٨٥). تاريخ أوربا في القرن التاسع عشر . دراسة في التاريخ والفلسفة. بغداد.
- حاطوم، ن. ا. (١٩٧٩). تاريخ الحركات القومية. يقظة القوميات الأوربية. دار الفكر. ط٢.ج١.

-فشر، هـ. ا. ل. (١٩٧٢). تاريخ أوربا في العصر الحديث (١٧٨٩ – ١٩٥٠). (تعريب ا. ن. هاشم و و. الضبع). القاهرة: دار المعارف. ط٦.

- **Translated References:-**
- Guerard, A. L.(1914). *French Civilization in The Nineteenth Century*. New York..
- Broglie. (1891). *Mémoires Du Prince De Talleyrand* . Paris :Calmann levy Éditeur.
- Sainte ,C. A. (1870). *Monsieur De Talleyrand* . Paris.
- Webster ,C. K. (1918). *The Congress of Vienna 1814 – 1815*. London: Oxford University Press.
- Carr, F. G. (1955). *Europe 1648- 1914*. London.
- Freksa , F. (1919). *A Peace Congress of Intrigue (Vienna 1815)* . New York.
- Morris , J. E. (1916).*Europe in The Xix Century (1878 - 1815)* . Cambridge .
- Stearns, F. N.(1947). *Europe 1815 – 1945*. London.
- Mccaabe, J.(1906). *Talleyrand . A Biographical Study*. London .
- Richards, D. (1943) . *AN Illustrated History of Modern Europe 1789 – 1939*. London.
- Joll, J. (1960). *Britin and Europe Pitt to Churchill (1793_1940)*. London.